

## الفصل الثالث

أَلَا نَكَ ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟!







رأيناه كيف وُهب طبيعة سوية متفوقة باهرة.  
ورأيناه كيف وصل طبيعته هذه بالله، ووضعها في خدمته وعند  
أمره.

وإنسان يتوافر له هذا، لا بد أن يكون إحساسه بالمسئولية  
مشحونًا وعارمًا.

وإن عمر لذلك الإنسان.

ينفعل بالمسئولية. ويتقبل لها، ويقبل عليها، في مثل عزم  
المرسلين..

والمسئولية لديه لا تتجزأ، ولا تتنوع، ولا تتفاوت..

ليس هناك مسئوليات صغيرة وأخرى كبيرة.. مسئوليات عادية  
وأخرى فوق مستوى العادة.

هناك مسئوليات وحسب..

و«عمر» أمام هذه المسؤوليات. هو «عمر» الذى يحتشد لكل تبعة ولكل عمل، احتشاداً لا تتفاوت درجاته.. لأنه يتصرف وفق طبيعته القوية الأمينة المؤمنة.

وطبيعته هى الأخرى لا تتجزأ، ولا تتقسم.. كل عمل من أعمال «عمر» نجد فيه «عمر» كله.

ضع عينيك على أية واقعة من وقائع حياته، تجد فيها شمائله كلها - عدله، ورعه، زهده، إيمانه، شدته، لينه، عظمته، بساطته!!

وهو لا يتحمل من المسؤولية القدر الذى يخصه، ويبرىئ ذمته، بل يحمل منها القدر الذى يتطلبه الموقف جميعه، وتُحقق به المسؤولية كل ذاتها، ولا يسأل نفسه ساعتئذ إن كان وحده، أم كان معه نُصراء.

إن بين جوانحه، ومِلاء نفسه تفانيًا رهبانيًا، لا يسأل عن العواقب ولا يُجرى بين يديها أى تقدير أو حساب!!

\*\*\*

لقد كان يوم أسلم، العضو الأربعين بين رجال هذه الجماعة المؤمنة ولا يكاد يمضى على إسلامه لحظات. أجل لحظات، حتى ينتفض فى قلبه الشجاع إحساسه بمسئوليته عن الدين كله، وعن هذه الجماعة المسلمة كلها، بل وبمسئوليته عن مستقبل الدين وأهله عبر القرون الآتية والدهور المقبلة..

ومن ثمَّ يخرج من فوره معلناً إسلامه على الصورة التي أشرنا إليها من قبل.. وهو آنئذ يدرك تماماً أنه لا يعلن إسلامه هو.. إسلام «عمر بن الخطاب».. بل يعلن إسلام التسعة والثلاثين الذين سبقوه إلى الإسلام، والذين يعبدون الله خُفية.. - بل يعلن أيضاً إسلام مئات الملايين القادمة عبر المستقبل!!

ولا تقف مسئوليته عن هذا الدين الذي اعتنقه بإعلان إسلامه، بل تُجاوز ذلك إلى إخراج الإسلام والمسلمين من الخفاء الذي اضطُرهم إليه اضطهاد قريش..

وهكذا يذهب إلى رسول الله قائلاً:

«والله يا رسول الله لن نعبد الله سرّاً بعد اليوم»..

وتخرج الدعوة لتواجه خصومها، وتنادى الموعودين بها. وتتلقى قريش من تكبيراتها المدوية أولى الكلمات فى منشور نعيها، ونعى أصنامها.

\*\*\*

كانت هذه أولى بركات «عمر»..

وكان هذا نموذجاً للأسلوب الذى سيتحمل به «عمر» مسئولياته عن دين الله، ودنيا الناس.

إنه أسلوب رجل يرى نفسه تجاه الأحداث والمواقف، وكأنه المسئول الأوحد عنها.

كل أزمة ستواجه الإسلام والمسلمين، سيجابها «عمر»،  
بوصفه المسئول وحده عن مقارعتها وحلها.  
وإيمانه بمسئوليته هذه سيدفعه إلى أن يرفض على طول الخط  
كل دنيّة في الدين، وكل مُلاينة لأعداء هذا الدين.  
وعلى الرغم من إيمانه المطلق برسول الله، فإن مسئوليته  
ستتحرك في كل الاتجاهات حتى لو جعله يبدو - معارضاً -  
للرسول الذي يقده ويفتيديه !!

ففي صلح الحديبية يرى «عمر» أن المزايا التي أعطاه الرسول ﷺ  
لكفار قريش سخية وكثيرة، وهو يؤمن بضرورة مناجزتهم ودخول  
مكة عليهم طوعاً منهم أو كرهاً لهم، ما داموا لا يريدون أن يجنحوا  
للسلم، ويحتكموا إلى الحق..

وما دام الحق والباطل في معركة، فلا بد للحق أن يستعلّي، بدل  
أن يُهادن.. ولا بد له أن يُناجز، بدل أن يُسائر..  
هكذا فهم «عمر» المسألة، وكوّن الرأي، ولم يكن للجهر به من  
مفر..

وهكذا أقبل على رسول الله قبل أن يبدأ الكاتب في تحرير  
صحيفة المعاهدة وقال:

- يا رسول الله، أَلَسْنَا على الحق، وهم على الباطل؟  
قال الرسول: بلى..

قال عمر: أليس قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار؟

قال الرسول: بلى..

قال عمر: فَعَلَامَ نُعْطَى الدُّنْيَةَ فِي دِينِنَا، وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟؟

قال الرسول: ابْنَ الْخُطَابِ؟.. إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً. وترنَ عبارة «إني رسول الله» في رُوع «عمر» رنين الصدق، ويستنتج من نطق الرسول بها في هذا المقام، أن الخُطة أكثر وأبعد من أن تكون مجرد رأى عابر لرسول الله، فيسكت..

ويذهب غير بعيد، يدير خواطره على الموقف كله، ويعود إحساسه العام بالمسئولية فيغالبه، ويغريه بالمعاودة، فينطلق حديثاً إلى أبي بكر رضي الله عنه، ويُسِرُّ في أذنه الحديث:

- يا أبا بكر، ألسنا على الحق، وهم على الباطل؟

- بلى يا عمر!

- فلماذا إذن نعطي الدنيا في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله

بيننا وبينهم؟!

ويطمئنه أبو بكر إلى أن الله لن يتخلى عن رسوله، وأن فتح الله قريب.

ويهدأ «عمر».. وإن كان هذوؤه هذا لم يمنعه أن يُشيع «سهيل

ابن عمرو» مندوب قريش، بنظرات مضطربة فاتكة!..!

وعندما مات عبد الله بن أبي بن سلول، وكان كبير المنافقين في

المدينة، عارض «عمر» في إصرار، صلاة رسول الله عليه.

ولنصغ إلى «عمر» نفسه يقص علينا النبأ.

- «لما توفي عبد الله بن أبي، دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت في صدره، فقلت يا رسول الله، أعلَى عدو الله تصلى؟.. وأخذت أعدد أيامه الخبيثة ورسول الله ﷺ يبتسم، حتى إذا أكثرْتُ عليه، قال؛ أحرُّعنى يا عمر، إني خيرت فاخترت، قد قيل لى استغفر لهم، أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له، لزدت.. ثم صلى عليه ومشى مع جنازته وقام على قبره حتى فرغ منه..»

«فعبجت لى، ولجراتى على رسول الله، فو الله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت الآية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٨٤]. فما صلى بعدها رسول الله على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل!!»

هذا المشهد يكشف عن الطريقة التى كان «عمر» يحمل بها مسئولياته فى شجاعة وصدق.

فركوب مخاطر الدنيا كلها أهون عليه من أن يقول للرسول: لا.. ولكنه إنسان لا يملك أمام مسئولياته خياراً، وما دام يرى من واجبه أن يقول: لا.. فليقلها وأمره إلى الله؛ فإذا استمسك الرسول بموقفه، يكون «عمر» قد قال كلمته. وأبرأ نمته، وليس أمامه بعد هذا سوى سبيل الطاعة والإيمان.

وهو فى هذه الواقعة، قدّر أن صلاة الرسول على منافق ضخم  
كعبد الله بن سلول، عمل يجرى المنافقين بمزيد من اللؤم والصلف،  
ويُضائل من حرمة الصدق والإخلاص عند كثير أو قليل من الناس.  
وإجلاله المسئولية يدعوه لإعلان هذا الرأى، حتى فى مثل هذا  
الموطن، حيث وقف الرسول بالفعل ليصلى على جثمان الرجل،  
فيعترضه «عمر». ويقول: أعلّى عدو الله تصلى يا رسول الله؟!  
على أن تناول «عمر» مسئولياته، يبدو أروع وأبهى ما يكون  
عندما صار أميرًا للمؤمنين!!

هنا نلتقى بأعظم آيات التفوق الإنسانى..

هنا، نبصر نبوغ النفس، وبطولة الروح. وإعجاز السلوك!!  
هنا، نرى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا يكاد يخطر بقلب  
بشر!

أجل، هنا العظام تتفوق على نفسها، ويَزْحَمُ بعضها بعضًا هنا  
«عمر».. رضى الله عن «عمر»!!!

حاكم يحمل مسئولياته على نمط فذّ. ويعطى البشر جميعًا إلى  
آخر لحظة فى الأبد، درسًا فى الأمانة - أى درس، وقدوة فى  
الذمة - أى قدوة!!

موقفه من نفسه.. موقفه من أهله.. موقفه من الضعيف ومن  
القوى فى قومه وأمته.. موقفه من ولاته.. موقفه من أموال الأمة..

مواقفه هذه، المترعة بإجلال منقطع النظير لمسئوليته تجاه عمله، وتجاه أمانة الحكم فى كل مجالى الحكم ومظاهره..  
أما هو كحاكم، فقد حرم نفسه لا من الطيبات المشروعة للحاكمين فحسب، بل من الطيبات المشروعة للمواطن العادى فى كل زمان ومكان.

فعل ذلك بروح المسئولية التى حببت إليه أن يكون أول من يجوع إذا جاع قومه.. وآخر من يشبع إذا شبعوا.. والتى فرضت عليه أن يعانى كل ما يعانىه الناس من عمل وشظف.

وإنه ﷺ ليصور هذا الضمير القوى فى فلسفة حكيمة فيقول:

– «كيف يعينى شأن الناس، إذا لم يُصبنى ما يُصيبهم» !!

وهكذا رأينا أمير المؤمنين، يلتزم أكل الزيت، حين أصاب المسلمين أزمة شديدة فى اللحم والسمن، ويُدمن ابن الخطاب أكل الزيت حتى تنن أمعاؤه وتُقرقر، فيضع كفه على بطنه، ويقول:

أيها البطن لتمرئن على الزيت، ما دام السمن يباع بالأواقى!!

وفى عام الرمادة، وكان عام مجاعة قاتلة فى المدينة، أمر يوماً

بنحر جزور، وتوزيع لحمه على أهل المدينة..

وقام المختصون بإنجاز المهمة، بيد أنهم استبقوا لأمير

المؤمنين، أطيب أجزاء الذبيحة..

وعند الغداء، وجد «عمر» أمامه على المائدة سنام الجزور

وكبده، وهما أطيب ما فيه!.. فقال:

- من أين هذا؟

قيل: من الجزور الذي ذبح اليوم..

فقال، وهو يزيح المائدة بيده الأمانة:

- بَخْ بَخْ، بنس الوالى أنا، إن طعمتُ طيبها، وتركت للناس

كراديسها - يعنى عظامها - ..

ثم نادى خادمه أسلم، وقال له:

- يا أسلم، ارفع هذه الجفنة. واثنتى بخبز وزيت!!

إن قوله: «بنس الوالى أنا، إن طعمت طيبها» يرسم الصورة

الكاملة المضيئة لروح المسئولية التى كانت تسيطر على تصرفات

ذلك العاهل المنقطع النظير.

إنه رجل يرى نفسه واحداً من الناس آثره الله عليهم بمزيد من

التبعة والواجب حين ولّاه أمرهم، واستخلفه عليهم. ولم يؤثره

بامتياز يجعل الحكم كلاً مباحاً، وقنصاً بواحاً!!!

على أن «عمر» وهو أمير للمؤمنين، يبذل من الجهد، ما يشفع

له إن هو امتاز لنفسه طعمة طيبة تُعينه وتقويه...

هذا منطقتنا، وهو منطق عادل فى رأينا..

أما «عمر»، فصاحب منطق آخر.. وهو يعرف العدل فى ذراه

العالية التى تتقطع الأنفاس دون بلوغها!!

هو يدرك أن مسئوليته تقتضيه أن يوفر للناس عيشهم، فإذا

قعدت به دون هذا ظروف لا يملك لها دفعا، تكون مسئوليته

أن يُسَوَّى بينهم بالحق. وأن يكون هو أول من يحمل حظه من  
الخصاصة والضعف..

ذات يوم يتلقى من أحد ولاته هدية من الحلوى، ولا تكاد توضع  
بين يديه حتى يسأل الرسول الذي جاء يحملها:  
- ما هذا؟

قال: حلوى يصنعها أهل أذربيجان، وقد أرسلني بها إليك  
عتبة بن فرقد، وكان والياً على أذربيجان - فذاقها «عمر»، فوجد  
لها مذاقاً شهياً..

فعاد يسأل الرسول:

- أكل المسلمين هناك يطعمون هذا؟

قال الرجل: لا... وإنما هو طعام الخاصة..

فأعاد «عمر» إغلاق الوعاء جيداً، وقال للرجل:

- أين بعيرك؟.. خذ حملك هذا، وارجع به لعتبة، وقل له:

«عمر» يقول لك. اتق الله، وأشبع المسلمين مما تشبع منه!!

هذا حاكم لا نلقاه في مكان الصدارة، ولا في مقدمة الموكب إلا  
حين تكون المخاطر داهمة.. أما دون هذا، فقد اختار مكانه دوماً  
هناك.. آخر مقعد.. في آخر صف.. ليحرس القافلة، وليتأكد إذا  
كان ثمت نعمة مقبلة، أنها لم تبلغه إلا بعد أن تكون قد مرت  
بالناس جميعاً!!!

\*\*\*

فإذا جننا موقفه من أهله وأسرته ، وجدنا تقديسًا للمسئولية لا يُضاهيه تقديس، وإكبارًا لأمانة الحكم. لا يضاهيه إكبار..  
إنه لا يحرمهم مما ليس لهم بحق فحسب، بل مما هو لهم حق مشروع. وإنه ليحملهم من المسئوليات أضعاف ما يحمله نظراؤهم من الناس؛ حتى صارت قرابة «عمر» عبئًا يود الأقرباء لو استطاعوا منه الفرار!

إن أمير المؤمنين يعلم أن أمانة الحكم لا تُمتحن امتحانها الوثيق إلا هنا.. في علاقات الحاكم بأهله، هل لهم قانون، وللناس قانون؟ أم إنهم والناس سواسية أمام قانون واحد، وعدالة واحدة؟؟ من أجل هذا بالغ في إلزامهم جميعًا بمسئولية القدوة.  
ولطالما حملهم على شظف العيش، ولأواء الحياة.. لطلما انتزع من أيديهم، بل من أفواههم اللقمة الطرية!!

ولقد كانت الأرض تميد، والسماء تمور، حين يعلم أن أحدًا من أسرته ذهب بامتياز - أي امتياز!

وكان إذا سنَّ قانونًا، أو حظر أمرًا، جمع أهله أولًا. وقال لهم: - «إني قد نهيت الناس عن كذا، وكذا. وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم، فإن وقَعتم وقعوا. وإن هبتم هابوا. وإنى والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه منى.. فمن شاء منكم فليتقدم، ومن شاء فليتأخر»!!  
أرأيتم؟؟..

«ضاعفتُ له العذاب لمكانه منى»..

إن القربى من عمر، لا تعنى أن العدل فى إجازة.. ولا تعنى أن القانون لغو. بل تعنى أضعافاً مضاعفة من التبعة والمسئولية والحرمان.. تعنى البعد من كل شبهة. والتخلى عن كل متعة. تعنى أن يتقدم هؤلاء الأقرباء عند الخطر، ويتأخرون عند المغنم، بل هى كذلك تعنى عند «عمر» حرمانهم من حق مكتسب، تفادياً لشبهة محتملة!!

ولو رأيناه وهو يعاتب ولده «عبد الله بن عمر» لرأينا عجباً..  
مع أن عبد الله ﷺ كان إماماً فى الورع والزهد والتقوى...  
كان يتبع خطى أبيه، ولم تكن نفسه لتزين له شبهة من سوء؛  
ومع هذا، فما كاد «عمر» يراه يستروح نعمة متواضعة من نعم  
الحياة الدنيا، إلا قال له:

– «ألأنك ابن أمير المؤمنين؟!»

وكانت هذه العبارة: «ألأنك ابن أمير المؤمنين» تمثل الشعار  
الحى الذى رفعه «عمر» لأهله خاصة، وللناس كافة تجاه الحق  
والمعدلة.

يدخل يوماً دار ابنه عبد الله. فيجده يأكل شرائح لحم، فيغضب  
ويقول له:

– «ألأنك ابن أمير المؤمنين تأكل لحمًا، والناس فى خصاصة؟..

ألا خبزًا وملحًا؟. ألا خبزًا وزيتًا؟!»

ويخرج إلى السوق يوماً في جولة تفتيشية، فيرى إبلاً سماناً،  
تمتاز عن بقية الإبل بنموها وامتلائها، فيسأل:  
- إبلٌ من هذه؟؟

قالوا: إبل عبد الله بن عمر..

وانتفض أمير المؤمنين؟ كأنما القيامة قامت، وقال:

- عبد الله بن عمر...؟؟ بَخْ بَخْ يا بن أمير المؤمنين!!

وأرسل في طلبه من فوراً، وأقبل عبد الله يسعى.. وحين وقف  
بين يدي والده، أخذ «عمر» يفتل سبلة شاربه - وتلك كانت عادته  
إذا أهّمه أمر خطير - وقال لابنه:

- ما هذه الإبل يا عبد الله؟؟

فأجاب: إنها إبل أنصاء - أي هزيلة - اشتريتها بمالي،  
وبعثت بها إلى الحمى - أي المرعى - أتاجر فيها، وأبتغى ما  
يبتغى المسلمون..

فعقب «عمر» في تهكم لاذع:

- ويقول الناس حين يرونها.. ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين..  
اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين.. وهكذا تسمن إبلك، ويربو ربحك يا  
ابن أمير المؤمنين!!

ثم صاح به:

- «يا عبد الله بن عمر، خذ رأس مالك الذي دفعته في هذه

الإبل، واجعل الربح في بيت مال المسلمين»..

يا خالق هذا الإنسان، سبحانك...!!!

إن «عبد الله بن عمر» لم يأت أمراً نُكُراً، إنما يستثمر ماله الحلال في تجارة حلال، وهو بدينه القوى وأخلاقه الأمانة فوق كل شبهة.

ولكن لأنه ابن أمير المؤمنين، يحرمه أمير المؤمنين، مما هو له حق - مظنة أن تكون بُنوته لعمر، قد هيأت له من الفرص مالا يتوافر لغيره من الناس!!

هذا حاكم يمك الميزان في رهبة لا تماثلها رهبة، وهو لا يدرأ أهله عن أن يكونوا أهل حظوظ ومزايا فحسب.. بل إنه ليضطرهم إلى أن يعيشوا معه فوق صراط أحد من الشفرة.. وأرق من الشعرة، حتى لكانما رُزِنوا بقرابة «عمر»، بدل أن يهنأوا بها ويتبخخوا فيها! يصل إلى المدينة يوماً بعض أموال الأقاليم، فتذهب إليه ابنته «حفصة» رضي الله عنها، لتأخذ نصيبها. وتقول له مداعبة: - «يا أمير المؤمنين، حق أقاربك في هذا المال، فقد أوصى الله بالأقربين»..

فيجيبها جاداً:

- «يا بُنية، حق أقربائى فى مالى.. أما هذا، فمال المسلمين..

قومى إلى بيتك»!!

هذا رجل تأدب على يد «محمد» رسول الله ﷺ..  
ولطالما رآه يقول لأحب الناس إليه، ابنته «فاطمة البتول» «لا يا فاطمة.. إن في المسلمين من هم أحوج منك لهذا المال»..  
ثم يحرمها ويعطى سواها!!  
من هذا المنهل ارتوى «عمر»، وعلى هذا الهدى سار..  
وهو يطالب أهله وذويه أن يرتفعوا دوماً إلى مستوى المسؤولية لا الحظوة. فليس لدى «عمر» حُظوة لإنسان..  
هو يريد منهم أن يكونوا عوناً له على واجبه، وذلك يقتضيه أن يبذلوا جهداً أكثر، ويحرزوا تفوقاً أكبر.  
يقتضيه أن يعطوا كثيراً، ويأخذوا قليلاً، وينتظروا من الله حُسن الثواب..  
أجل.. يقتضيه أن يكونوا قدوة لأهل العفاف والكفاف.  
حين أفاء الله على المسلمين في عهده خيراً كثيراً، وامتلاً بيت المال بالمال، أشار عليه نفر من صحبه، أن يقوم بإحصاء الناس، ورصد أسمائهم في ديوان، حتى ينالوا جميعاً رواتبهم السنوية في نظام محكم.  
واختير لهذه المهمة - عقيل بن أبي طالب، وجبير بن مطعم، ومخرمة بن نوفل - وكانوا أعلم الناس بأنسَاب قريش، وأكثرهم معرفة بالمسلمين.

جلسوا يدونون الأسماء، بادئين ببني هاشم، ثم بآل أبي بكر ثم  
بني عدي آل عمر...

فلما طالع أمير المؤمنين الكتاب رده إليهم وأمرهم أن يقدموا  
على آل عمر كثيرين غيرهم اقترح أسماءهم، وذكر عائلاتهم..  
وقال: «ضعوا عمر وقومه موضعهم»!!

وعلم «بنو عدي» بهذا، فذهبوا إليه راجين أن تظل أسماؤهم في  
مقدمة الديوان كي ينالوا أنصباؤهم والمال وفر، وقالوا له: ألسنا  
أهل أمير المؤمنين؟  
فأجابهم عمر:

– «بَخِ بَنِي عَدِي، أَرَدْتُمُ الْأَكْلَ عَلَي ظَهْرِي، وَأَنْ أَهَبَّ حَسَنَاتِي  
لَكُمْ، لَا وَاللَّهِ لَتَأْخُذُنَّ مَكَانَكُمْ وَلَوْ جِئْتُمْ آخِرَ النَّاسِ»..  
إن القرابة من أمير المؤمنين، لا تعني كما أسلفنا الأثرة والحنوطة  
إنما تعني العرق والشطف..

ولقد رفض أمير المؤمنين إلحاح أصحابه وإخوانه لكي يُولى  
ابنه عبد الله منصباً من مناصب الدولة..

ولقد كانوا في إلحاحهم مدفوعين بحرصهم الشديد على الانتفاع  
بمواهبه النادرة.

ولكن «عمر» رفض كما رفض عند موته أن يرشحه للخلافة..  
بل رفض أن يجعله ضمن الستة الذين رشحهم هو ليختاروا من بينهم  
خليفة قائلاً: «حَسْبُ آلِ عَمْرٍ أَنْ يَحَاسِبَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ، هُوَ عَمْرٌ»!!

لكن يا أمير المؤمنين، إن ولدك عبد الله هو التقى العادل، فهل ذنبه، وذنوب الناس الذين ستسعدهم ولايته أنه ابن أمير المؤمنين؟!

طالما قيل هذا القول لعمر.. فيذكر قائله بأن عبد الله ليس هو التقى العادل وحده.. وهناك في المسلمين نظراء له في العدل والتقوى، فإذا آثره «عمر» عليهم يكون قد حابى وجامل!..

ثم إن «عمر» رجل «قدوة»، قبل أن يكون رجل «حكم»؛ فإذا استعمل اليوم صالحى أهله. فأيان يذهب إذا جاء من بعده حكام يُسرفون فى تولية أهليهم. ويقولون: لقد فعل هذا «عمر»؟!

من أجل ذلك وضع مبدأ جليلا فقال:

— «من استعمل رجلا لمودة أو قرابة، لا يحمله على استعماله إلا ذلك. فقد خان الله ورسوله والمؤمنين».

إنه إذا ولى عبد الله ابنه عملا، لن يفعل، لمكان عبد الله منه؛ لا لمحض استحقاقه وكفايته. ومع هذا يصير على موقفه..

جلس يوماً بين أصحابه وقال:

— «أعيانى أهل الكوفة.. إن استعملت عليهم لئنا استضعفوه وإن وليتهم القوى شكوه، ولوددت أنى وجدت قويا أمينا مسلما، أستعمله عليهم».

فقال أحد جلسائه: أنا والله أدلك على القوى الأمين المسلم..

قال عمر متحفظاً: من هو..؟  
قال الرجل: عبد الله بن عمر.  
فأجاب أمير المؤمنين قائلاً: قاتلك الله. والله ما أردت الله بهذا...  
ثم اختار والياً آخر!!

\*\*\*

لقد اعتدنا أن نضع هذا السلوك المعجز لعمر تحت عنوان الزهد  
أو التقشف...

فعمر يجوع ويتقشف في مطعمه، وملبسه، ويحمل أهله معه  
على ذلك بدافع، نُسِمه زهداً..

ولكن الحق أن وراء الزهد، حافزاً أبعد غوراً وأعمق جذوراً.  
ذلك هو الاحترام الفريد لمسئوليته، والتفاني الفذ في الإخلاص  
لتبعاته وواجبه.

إن للمسئولية في ضميره الطاهر الحيّ قَداسةً مطلقة، وجميع  
الاعتبارات والمواقف، تتكيف وفق مقتضيات هذه المسئولية، ولا  
تخضع هي لأي موقف أو اعتبار.

ولعل من حظوظنا الوافية أن نطالع هذه الخطبة القيمة التي  
استهلَّ بها عهد خلافته:

«.. بلغني أن الناس هابوا شدتي، وخافوا غلظتي، وقالوا: قد  
كان عمر يشدد ورسول الله بين أظهرنا، ثم اشتد علينا، وأبو بكر  
وَاليْنَا دُونَهُ، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟...»

«ألا من قال هذا فقد صدق، فإنى كنت مع رسول الله عونه وخادمه.. وكان ﷺ من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة، وكان كما قال الله تعالى ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٢٨﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٨]. فكنت بين يديه سيفاً مسلوا حتى يُغمدنى، أو يدعنى فأمضى.. فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راض. والحمد لله على ذلك كثيراً. وأنا به أسعد..

«ثم ولّى أمر المسلمين أبو بكر، فكان من لا تنكرون دَعْتَه، وكرمه، ولينه، فكنت خادمه وعونه. أخلط شدتى بليته فأكون سيفاً مسلوا حتى يغمدنى فأمضى. فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض، والحمد لله على ذلك كثيراً. وأنا به أسعد..»

«ثم إنى قد وليت أموركم أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى، فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا أليّن لهم من بعضهم لبعض. ولست أدع أحداً يظلم أحداً. أو يعتدى عليه حتى أضع خده على الأرض، حتى يُذعن للحق، وإنى بعد شدتى تلك، أضع خدى على الأرض لأهل العفاف، وأهل الكفاف..»

«ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها: لكم على ألا أجتبى شيئاً من خراجكم وما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم على إذا وقع فى يدي، ألا يخرج منى إلا فى حقه،

ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى، وأسد ثغوركم، ولكم على ألا ألقىكم في المهالك، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم...

«فاتقوا الله وأعينوني على أنفسكم بكفها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم»!!

\*\*\*

هذه الخطبة، ليست أجمع خطب «عمر»، ولا أكثرها ألقا ونورا ولكنها في هذا المقام تلقي ضياء غامرا على الحافز العميق الذي كان يحرك الرجل الكبير ويهدي خطاه..

فلقد كان ورسول الله حي، سيفا مسلولا على كل ما هو زيف وباطل، يضرب به الرسول ما يشاء..

وكان وأبو بكر حي، السيف المسلول نفسه في يد خليفة رسول الله.. أي إنه كان جنديا، قد يناقش قائده، ولكنه آخر الأمر السميع المطيع.. أما اليوم، فقد صار السيف والضارب معا.. الجندي، والقائد جميعا.. ومسئوليته عن كل شيء مسئولية مباشرة..

وهو لا يعد نفسه مسئولا أمام الناس، ولا أمام التاريخ، ولا أمام شيء من هذه المصطلحات. بل هو مسئول أمام الحق المبين - الله الذي لا تخفى عليه خافية!!

أجل ، أمام الله العلى الكبير يحمل «عمر» المسئولية التى كان يحملها أصحابه - رسول الله ، وخليفته أبو بكر..

\* \* \*

وإذا كنا رأينا كيف تفوق بمسئوليته على كل خوالج النفس ، ورغبات الأهل..

فلننظر الآن كيف باشر مسئوليته تجاه الناس الذين استخلفه الله عليهم.

وهنا نلتقى مثلما التقينا من قبل ، وكما سالتقى من بعد بالرجل الذى هو نسيحٌ وحده..

إنه يرى مسئوليته مباشرة عن كل رجل فى سربه.. عن كل امرأة فى بيتها.. عن كل رضيع فى مهده!!

وهو يبدأ مسئوليته تجاه الناس ، بأن يعيش فى أدنى مستويات عيشهم. فإذا دُست عليه لقمة متميزة قال كما قرأنا من قبل : «بئس الوالى إن أنا طعمت طيبها ، وتركت للناس عظامها»!

وأعجبٌ من كل عجب ، أنه لم يسلك سلوكه هذا تجاه الأحياء وحدهم ، بل تجاه الأموات أيضاً!!

فكان يرفض أن يظفر بنعيم لم يظفر به إخوانه الذين سبقوه إلى الله ، واستشهدوا فى سبيله قبل أن يمكّن للإسلام والمسلمين..

حين زار الشام، جىء له بطعام طيب، مختلف ألوانه، وبدلاً من أن يقبل عليه، وينعم بمذاقه، رمّقه بعينين باكيتين وقال:  
- «كل هذا لنا، وقد مات إخواننا فقراء لا يشبعون من خبز الشعير»!؟!

وهو يأخذ بمكايظ الجبارين العتاة حتى يخضعوا للحق. ويؤطئوا الأكناف لإخوانهم الذين يتميزون عليهم.  
وفى الوقت نفسه يضع خده هو على الأرض - كما سمعناه يخطب من قبل - لأهل العفاف وأهل الكفاف..  
وهو يحمل مسؤولياته فوق كاهله..، ولا يوزعها على الآخرين الذين هم بمسئولياتهم مشغولون..

فإذا تقدم منه أحد أصحابه ليرিحه من عمل، أو يشاركه فيه، نهره قائلاً: «أتحمل وزرى يوم القيامة»!؟  
وحين نبصر الجو النفسى المشحون بالاهتمام والحركة عندما تنادى «عمر» إحدى مسؤولياته، نرى عالماً يموج ويتحرك، وليس فرداً مجرد فرد..

والحدت العابر الذى لا يكاد يحسه أكثر الناس يقظة وتحفزاً وإنسانية.. كان «عمر» يرتجف منه، ويحتشد له، ويقيس عليه الأشباه والنظائر ثم يضع تشريعاً، ويسن قانوناً..  
قدم المدينة بعض التجار فى إحدى الأمسيات، وخيموا عند مشارفها، فاصطحب أمير المؤمنين عبد الرحمن بن عوف ليتفقد

أمر القافلة، وكان الليل قد تصرَّم، واقترب الهزيع الأخير منه..  
وعند القافلة النائمة اتخذ «عمر» وصاحبه مجلسًا على مقربة  
منها، وقال «عمر» لعبد الرحمن: فلنمض بقية الليل هنا، نحرس  
ضيوفنا..

وإذ هما جالسان، سمع صوت بكاء صبي، فانتهبه «عمر» وصمت..  
وانتظر أن يكفَّ الصبي عن بكائه، ولكنه تمادى فيه، فمضى يسرع  
صوبه، وحين اقترب منه وسمع أمه تُنْهِنُهُ، قال لها: اتق الله،  
وأحسنى إلى صبيك!!

ثم عاد إلى مكانه.. وبعد حين عاود الصبي البكاء فهول نحوه  
«عمر»، ونادى أمه: قلت لك، اتق الله أحسنى إلى صبيك..

وعاد إلى مجلسه. بيد أنه لم يكد يستقر حتى زلزلته مرة أخرى  
بكاء الصبي فذهب إلى أمه وقال لها: ويحك.. إني لأراك أمَّ سوء.  
ما لصبيك لا يقر له قرار؟!!

قالت، وهى لا تعرف من تخاطب: يا عبد الله قد أضجرتنى..

إنى أحمله على الفِطام فيأبى..

سألها عمر: ولم تحملينه على الفِطام؟

قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفِطيم..

قال وأنفاسه تتَوَاثب: وكم له من العمر؟

قالت: بضعة أشهر..

قال: ويحك.. لا تُعجلِيه..

يقول صاحبه عبد الرحمن بن عوف: فصلّى بنا الفجر يومئذ، وما يَسْتَبِين الناس قراءته من غلبة البكاء. فلما سَلِم قال: «يا بؤساً لعمر! كم قتل من أولاد المسلمين؟!»

ثم أمر منادياً ينادى فى المدينة: «لا تعجلوا صبيانكم عن الطعام، فإننا نفرض من بيت المال لكل مولود فى الإسلام».. ثم كتب بهذا إلى جميع ولاته فى الأمصار.

\* \* \*

أمير للمؤمنين، تدك جيوشه معاقل كسرى وقيصر. وهو هنا فى الساعات الأخيرة من الليل يحرس قافلة وفدت على المدينة.. ثم يؤرقه بكاء طفل ويزلزله، حتى يَشْرَق بالدموع وهو يصلى بالناس، ثم لا يعالج واقعة الحال هذه وحدها، بل يضع فى التوّ واللحظة قانوناً يستوعب كل حالاتها المشابهة..

اهتمام عجيب بمشاكل الناس، وممارسة فذة خارقة لمسئولية

الحكم!

وفى عام الرمادة يسمع عن جماعة فى أقصى المدينة، قد نزل بهم من الضر أكثر مما نزل بأهل المدينة كلها.. فيحمل فوق ظهره جرابين من دقيق، ويحمل خادمه «أسلم» قربة مملوءة زيتاً، ثم يهرولان إلى هناك يحملان النجدة والغوث.

وعندما يبلغان القوم، يطرح أمير المؤمنين بردائه ويطهو بنفسه طعامهم حتى يشبعوا.. ثم يرسل خادمه ليعود إليه بإبل يحملهم على ظهورها إلى داخل المدينة حتى يكونوا بقرب منه، وحتى ينزلوا مكانًا أطيب، وينالوا مكانًا أطيب، وينالوا رعاية أكثر..

الناس.. الناس.. الناس!!!

هذه الكلمة كانت الهتاف العلوي الذي يجلجل في روع عمر آناء الليل وأطراف النهار.

حتى لنراه وهو يجود بأنفاسه الطاهرة، وجراحه النبيلة الشهيدة تَنْشِخُبُ دَمًا، لا يشغله إلا أمر الناس..

فيدعو بالسته الذين اختارهم، ليختاروا من بينهم الخليفة الجديد وإذ يحضر منهم على، وعثمان، وسعد، يوصيهم وهو لا يقوى على الكلام فيقول:

«يا على.. إذا وليت من أمور الناس شيئًا، فأعيذك بالله أن تحمل بنى هاشم على رقاب الناس!».

«يا عثمان.. إذا وليت من أمور الناس شيئًا، فأعيذك بالله أن تحمل بنى أبي مُعَيْط على رقاب الناس!».

«يا سعد.. إذا وليت من أمور الناس شيئًا، فأعيذك بالله أن تحمل أقاربك على رقاب الناس!».

وفى العام الذى لقي الله فيه، كان على موعد مع نفسه أن يطوف بجميع الأمصار ليتفقد أحوال الناس ويبلو أخبارهم. ولقد قال يوماً لأصحابه:

«لئن عشت إن شاء الله، لأسيرن فى الرعية حولاً، فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى.. أما ولاتهم فلا يرفعونها لى. وأما هم فلا يصلون لى.. أسير إلى الشام فأقيم شهرين، وبالجزيرة شهرين، وبمصر شهرين، وبالبحرين شهرين، وبالكوفة شهرين، وبالبحرين شهرين.. والله لنعلم الحول هذا!!»

\*\*\*

وتنقلنا مسئولية «عمر» عن الناس إلى مسئوليته عن الولاية والعمال الذين كان يكمل إليهم مصائر الناس فى البلاد البعيدة والقريبة..

فكيف كان «عمر» يباشر مسئوليته تجاه ولاته ومعاونيه فى الحكم؟؟

كان يباشرها على طريقته.. طريقته التى لا تتغير، والتى لا نرى فى نماذجها مهما تتكاثر أذى تفاوت.. وكان يختارهم فى حرص من يختار مصيره!!.. إنه يعد نفسه مسئولا عن كل غلطة يرتكبها أحد ولاته، علم بها عمر أم لم يعلم..

ومن ثم، فهو يقلب وجهه، ويُعمل فكره، ويستخير ربه،  
ويستشير صحبه، ويستأني ثم يستأني قبل أن يختار عامله  
ومعاونه!!

كان يقول لأصحابه:

— «أرايتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم، ثم أمرته بالعدل  
أيبرئ ذلك ذمتي؟؟»

يقول أصحابه: نعم..

فيقول: «كلا. حتى أنظر في عمله، أعمل بما أمرته أم لا؟».

ويقول: «أيما عامل لي ظلم أحداً، وبلغتني مظلّمته فلم أغيرها.

فأنا ظلمته!!»

ويقول لخالد بن عرفة:

— «وإن نصيحتي لك وأنت عندى جالس، كنصيحتي لمن هو  
بأقصى ثغر من ثغور المسلمين، وذلك لما طوّقني الله من أمرهم، فإن  
رسول الله ﷺ قال: «من مات غاشاً لرعيته لم يُرَح رائحة الجنة!!»  
إن «عمر» يريد من ولاته أن يباشروا مسؤولياتهم على المستوى  
نفسه الذي يباشر فيه مسؤولياته..

وإذا كان ذلك عسيراً.. بل مستحيلاً، لأن «عمر» لا يتكرر، فقد  
كان يبحث عن أقرب الناس مسافة من هذا المستوى..  
وهو لهذا، يختارهم مُمعناً في التحوط والدقة واليقظة..

فهو - أولاً - يرفض كل من يسعى إلى المنصب أو يطلبه لنفسه. وإنه في هذا لمقتد برسول الله ﷺ ؛ إذ كان يقول: «إنا والله لا نُؤلى هذا الأمر أحداً يسأله أو يحرض عليه».

هذه أولى خطوات «عمر» في اختيار معاونيه.. استبعاد كل راغب في المنصب، طامح إليه، لأن الذي يحمل شهوة الحكم يحمل شهوة التحكم.. والذين يطلبون أن يكونوا حكاماً وولادة، لا يقدرّون مسئولية الحكم تماماً، وإلا لهربوا منه، وزهدوا فيه.. ذات يوم أسرّ في نفسه اختيار أحد أصحابه ليجمعه والياً على أحد الأقاليم.

ولو صبر هذا الصحابي بضع ساعات، لاستدعاه «عمر» ليقلده المنصب الذي رشحه له.

ولكن أخانا بادرَ الأمور التي لم يكن يعرف عنها شيئاً، وذهب إلى أمير المؤمنين يسأله أن يوليه إمارة..

ويبتسم «عمر» لحكمة المقادير، ويفكر قليلاً ثم يقول لصاحبه: - «قد كنا أردناك لذلك، ولكن من يطلب هذا الأمر لا يُعان عليه

ولا يُجاب إليه».. ثم صرفه وولى غيره!!

سنقول لأنفسنا: وأي بأس في أن يطلب رجل لنفسه الحق في عمل يثق من قدرته على مسئوليته، وحفظ أمانته؟؟

ألم يقل يوسف الصديق للملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ ﴿سورة يوسف: الآية ٥٥﴾.

أجل، قال يوسف الصديق هذا، بيد أنه حين تقدم طالبًا ذلك المنصب، كان تمامًا كفدائي يخاطر بحياته.. كان كجندی الإطفاء يُلقى بنفسه في أفواه اللهب، وهو لا يدري: أيعود مُعافى، أم يتحول هناك إلى رماد؟!

صحيح أنه طالب بمنصب رفيع، بيد أن هذا المنصب ساعتئذ كان غُرْمًا لا غنمًا، وكانت مخاطره المحققة، تفوق كثيرًا مباحجه المحتملة..

كان هناك إفلاس، ومجاعة، وخراب، وكل المسئولين يهربون مما جنت أيديهم، ثم يتقدم رجل لينقذ أزمة تستعصى على الإنقاذ.

هذا ليس طالب منصب، بل عاشق الخطر، وراكب الصعب!!  
على أن «عمر»، لم يكن بحاجة إلى أن يفلسف المسألة على هذا النسق.. فالأمر لديه في غاية الوضوح.. إنه يريد واليًا يرتفع إلى مستوى المسئولية كما يفهمها عمر. وأي واحد من هذا الطراز، سيهرب من الولاية بدل أن يحرص عليها أو يطلبها.

لقد هرب «عمر» مما هو أكثر من الولاية.. هرب من الخلافة إثر وفاة رسول الله.. ولولا أن طوّقه بها «أبو بكر» في لحظة لا تسمح بالتردد، بل ولا بالتفكير، لهرب منها أيضًا ولآثر كما قال: «أن يُضرب عنقه ولا يرى نفسه أميرًا للمؤمنين!!».

إن كل من يطلب الإمارة إذن، يكون سئ التقدير لتبعاتها، وعُقبها، ومن ثم لا يراه «عمر» جديرًا بها.

هذا أول ما يتطلبه من ولاته. الزهد في المنصب، والفرار منه، حتى إذا جاءهم كرها، أخذوه مشفقين!!  
 بعد هذا، يختار لها «القوى الأمين»..  
 ولا يكاد يختار الوالى حتى يأخذ بيده ويقول له:  
 - «إنى لم أستعملك على دماء المسلمين، ولا على أعراضهم.  
 ولكنى استعملتك لتقيم فيهم الصلاة، وتقسّم بينهم، وتحكم فيهم بالعدل»..

ثم يعدّ له عدداً، النواهي التي عليه أن يتجنبها:

• لا تركب دابة مُطَهَّمة..

• لا تلبس ثوباً رقيقاً..

• لا تأكل طعاماً رافهاً..

• لا تغلق بابك دون حوائج الناس...

ولكن، لماذا يحول «عمر» بين عماله، وهذه الطيبات المباحة -

الدابة المطهّمة.. والثوب الرقيق.. واللقمة الطرية؟!..

إنه يفعل ليعيشوا دائماً في مستوى الشعب الكادح الفقير..

وليظلوا في مكانهم الحق، خداماً للناس، لا سادة لهم..

إنه لا يريد لولّاته أن يُفْتَنُوا، أو يترفوا، أو ينالوا باسم الحكم

أى بُلَهْنِيَّةٍ، أو امتياز.

من أجل هذا، يتعقبهم فى كل مظاهر الزينة، والعلو، فيذودهم  
عنها حتى لو يكون هذا المظهر دابة الركوب.  
يجب أن تكون هذه الدابة للعمل، لا للخيلاء.. للخدمة  
لا للزُهو.. للضرورة، لا للصلف ولا للترف!!  
إنه لا يريد لولاته أن يفقدوا وجاهتهم.. ولكنه يريد لهم  
الوجاهة المشروعة التى لا بَغى فيها ولا غرور..  
يريد أن يتفوقوا على الناس بأناقة النفس، لا بأناقة اللباس،  
وبمحامد الأفعال، لا بالمظاهر الكاذبة، والغبار الباطل!!!  
انظروا كيف يرسم فى حذق باهر، صورة الأمير الذى يُحب،  
والحاكم الذى يُؤثر..

ذات يوم قال لإخوانه: «دُلونى على رجل أكلُ إليه أمرًا  
يهمنى.. قالوا: فلان. قال: لا حاجة لنا فيه.. قالوا: فمن تريد؟  
قال: «أريد رجلا إذا كان فى القوم وليس أميرًا لهم، بدا، وكأنه  
أميرهم.. وإذا كان فيهم وهو أميرهم. بدا، وكأنه واحد منهم!!»  
يا لبهاء عقلك، وذكاء روحك!!  
انظروا..

هذا ما يريده «عمر» تمامًا - أمراءُ فى أخلاقهم وتواضعهم.  
وليس فى تبذخهم وعلوهم..  
أمراء، لا يفسح الناس لهم الطريق، ولا يتخطون الرقاب. بل  
يمشون على الأرض هونًا، ويعيشون قانعين..

أمرء، يشاركون الناس ولا يتميزون عليهم بغير العمل الصالح  
والجهد المبذول..

ولقد تعلم هذا من خير المعلمين، من رسول الله محمد ﷺ.  
فما كان الرسول يرى أصحابه في عمل إلا شاركهم، آخذًا أكثر  
جوانب العمل مشقة.

يجمع يومًا الحطب لأصحابه وهم سَفَر، فإذا قالوا: نحن نكفيك  
ذلك يا رسول الله، قال لهم: «إني أكره أن أتميز عليكم»..  
ويسمع بعض أصحابه يقولون له: «أنت سيدنا، وابن سيدنا،  
فينهاهم قائلًا: «لا يستغوينكم الشيطان»..  
ويقدم على أصحابه، فيقفون له، فينهاهم قائلًا: «لا تقوموا كما  
يقوم الأعاجم، يعظم بعضهم بعضًا!!».

\*\*\*

ولا تقف مسئولية «عمر» عن ولاته عند حسن اختيارهم، وحسن  
توجيههم. بل تنهض إلى إقامة كل الضمانات التي تجعل ولايتهم  
على الناس رحمة، ورخاء، وأمنًا..  
وسبيلُه لهذا، أن يجعل الحاكم تحت رقابة المحكوم.. وأن  
يحقق بنفسه وعلى الفور كل شكوى يشكوها مواطن من حاكم، وأن  
يتتبع في يقظة عارمة سلوك ولاته في كل الأمصار!!

فى موسم الحج، وعلى ملاً من الأعداد الهائلة من حجاج المسلمين القادمين من كل بلد، جمع عماله وولاته جميعاً، ووقف خطيباً:

«أيها الناس، إنى والله لا أبعث عمالى إليكم، ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم، فمن فعل به سوى ذلك، فليرفعه إلى. فوالذى نفسى بيده لأمكننه من القصاص!!».

ويقف «عمرو بن العاص»، الذى رأى فى هذا الحضّ خطراً على هيبة الولاة والحاكمين. فيقول: «أرأيت إن كان رجل من المسلمين والياً على رعية فأدّب بعضهم، أتقتص منه؟؟».

ويجيب عمر: «إى والذى نفسى بيده لأفعلن، فقد رأيت رسول الله ﷺ يُقَصُّ من نفسه، ويقول:

«من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليقتد منه!!».

و«عمر» يعنى دائماً ما يقول، فما كانت تبلغه شبهة عن وال حتى يتوافر عليها فى يقظة وحزم.

يسأل وفداً زاره من أهل حمص عن واليهم «عبد الله بن قرط» فيقولون: خير أمير يا أمير المؤمنين، لولا أنه قد بنى لنفسه داراً فارهة..

ويهمهم عمر: داراً فارهة؟.. يتشامخ بها على الناس؟ بخٍ بخٍ لابن قرط..

ثم يوفد إليه رسولا، ويقول له: ابدأ بالدار فأحرق بابها... ثم أتت به إلى.

ويسافر الرسول إلى حمص، ويعود بواليتها فيمتنع عمر عن لقائه ثلاثة أيام. ثم فى اليوم الرابع يستقبله ويختار للقائه مكان «الحرّة» حيث تعيش إبل الصدقة وأغنامها..

ولا يكاد الرجل يقبل، حتى يأمره «عمر» أن يخلع حلتته، ويلبس مكانها لباس الرعاة ويقول له: «هذا خير مما كان يلبس أبوك».. ثم يناوله عصا، ويقول له: «وهذه خير من العصا التى كان أبوك يهشُّ بها على غنمه».. ثم يشير بيده إلى الإبل ويقول له: «اتبعها وارعها يا عبد الله»!! ثم بعد حين، يستدعيه، ويقول له معاتبًا: - هل أرسلتك لتشيد وتبنى؟!.. ارجع إلى عملك ولا تعد لما فعلت أبدًا!!

هذا موقفه من رجل شهد له قومه بأنه خير أمير لولا أن ميّز نفسه بدار رافهة!..

ألا ترون أننا أمام أسطورة.. بل لو كانت أسطورة لصعب تصديقها.. ولكن لحسن حظ البشرية كلها أن «عمر» لم يكن أسطورة؛ بل كان حقيقة ملأت الزمان والمكان.. وكان هدى من الله للناس يقول لهم: هكذا حاولوا أن تكونوا..

\*\*\*

وفى الوقت الذى تجمع الفرس وحلفاؤهم، فى نهاوند.. وسعد بن أبى وقاص يتهياً لمنازلة جيوشهم اللجبة، تصل المدينة شكوى ضد سعد، فيستدعيه «عمر» فوراً، غير منتظر قليلاً ريثما تنتهى المعركة الموشكة على البدء والاندلاع.. ذلك لأن «عمر» يرى أنه إذا كانت الشكوى صحيحة وصادقة، فلن يُبقى على سعد. حتى لو خسر المسلمون المعركة كلها.. لأن النصر كما يقول «عمر». إنما يبطن عن كل قائد أو جيش يجترح السيئات!!

وهكذا، وفى هذا الظرف الدقيق الحرج، يرسل «عمر» «محمد ابن مسلمة» إلى هناك ليفحص الشكوى فإن وجدها حقاً، عاد بسعد إلى المدينة..

ويذهب «محمد بن مسلمة» ويأخذ بيد سعد الفاتح الأعظم، والوالى المهيب، ويطوف به على الناس يسألهم الرأى فيه.. فقوم يقولون عنه خيراً... وآخرون يُحصون عليه بعض مأخذهم.. وأخيراً، يصطحبه ابن مسلمة إلى المدينة.

وإننا لنعرف نبأه مع حاكم مصر وقاتحها، «عمرو بن العاص» حين وفد عليه من مصر، فتىّ مكروب يقول: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك..

ويستوضحه النبأ فيعلم منه أن «محمد بن عمرو بن العاص» قد أوجعه ضرباً، لأنه سابقه فسبّقه، فعلا ظهره بالسوط وهو يقول: خذها، وأنا ابن الأكرمين!!

وَيُرْسِلُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَدْعُو عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ وَابْنَهُ مُحَمَّدًا وَلِنَدْعِ  
«أَنْسِ بْنَ مَالِكٍ» يَرَوِي لَنَا النَّبَأُ كَمَا شَهِدَهُ وَرَأَاهُ:

يَقُولُ: «.. فَوَاللَّهِ إِنَّا لَجَلُوسٌ عِنْدَ عَمْرٍو، وَإِذَا عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ  
يَقْبَلُ فِي إِزَارٍ وَرِدَاءٍ، فَجَعَلَ عَمْرٍو يَتَلَفَّتُ بِأَحْتَا عَنْ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ، فَإِذَا  
هُوَ خَلْفَ أَبِيهِ..»

فَقَالَ: أَيْنَ الْمِصْرِيُّ؟..

قَالَ: هَا أَتَدْرِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ..

قَالَ عَمْرٍو: خُذِ الدَّرَّةَ، وَاضْرِبْ بِهَا ابْنَ الْأَكْرَمِينَ..

«فَضْرِبْهُ حَتَّى أَتُخَنَّهُ وَنَحْنُ نَشْتَهِي أَنْ يَضْرِبَهُ، فَلَمْ يَنْزِعْ  
حَتَّى أَجْبَبْنَا أَنْ يَنْزِعَ مِنْ كَثْرَةِ مَا ضْرِبَهُ، وَعَمْرٍو يَقُولُ: اضْرِبْ ابْنَ  
الْأَكْرَمِينَ!!»

ثُمَّ قَالَ عَمْرٍو لِلْمِصْرِيِّ: «أَجْلِهَا عَلَى صَلْعَةِ عَمْرٍو؛ فَوَاللَّهِ مَا ضْرِبَكَ

إِلَّا بِفَضْلِ سُلْطَانِهِ!!!»

قَالَ الرَّجُلُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَدْ اسْتَوْفَيْتَ، وَاسْتَفَيْتَ،

وَضْرِبْتَ مَنْ ضْرَبَنِي..

قَالَ عَمْرٍو: أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ ضْرِبْتَهُ مَا حُلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَكُونَ

أَنْتَ الَّذِي تَدْعُهُ..

ثُمَّ التَفَّتْ إِلَى عَمْرٍو وَقَالَ: «يَا عَمْرٍو، مَتَى تَعْبُدْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ

وَلَدْتَهُمْ أَمَهَاتِهِمْ أَحْرَارًا؟!!!».

والتفت إلى المصري وقال له: «انصرف راشداً، فإن رابك ريب  
فاكتب إليّ!!».

هذا هو عمرو بن العاص، صحابي من شيوخ الصحابة، وحاكم  
إقليم من أكبر أقاليم الفتح الإسلامي، ولا ينجو ولده من العقوبة،  
بل وتكاد العقوبة تدرك عمرو بن العاص نفسه لولا عفو صاحب  
الحق!

\*\*\*

على أن هذه المواقف الصارمة الحازمة التي يقفها «عمر» من  
ولاته الذين قد يسيئون استعمال سلطانهم.. هذه المواقف تتحول  
إلى مشاهد أخرى يذوب فيها «عمر» «حَنَانًا وَغَبْطَةً حين يحقق  
مع أحد الولاة، فينتهي بريئاً..  
ذات يوم تلقى شكَاةً ضد وال له، هو «سعيد بن عامر الجُمَجِي»  
تتضمن ثلاثة مآخذ:

أولها: أنه لا يخرج إلى الناس حتى يتعالى النهار..

ثانيها: أنه لا يجيب أحداً بليل..

ثالثها: يغيب عن الناس كل شهر يوماً، فلا يرى أحداً ولا يراه  
أحد..

واستدعاه «عمر»، وواجهه بالشَّاكِين، وقال لهم تكلموا:

قالوا: لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار..

ونظر أمير المؤمنين صوب سعيد وسأله أن يجيب..  
فقال: والله يا أمير المؤمنين. إن كنت لأكره ذكر السبب. ليس  
لأهلى خادم، فأنا أعجن معهم عجيني، ثم أجلس حتى يختمر،  
ثم أخبز خبزي، ثم أتوضأ وأخرج إليهم..  
وأشرفت أساريير «عمر»، فقد بدأ أنه لن يُساء في رجل وثق في  
دينه، واختاره بنفسه..

ثم قال للشاكين: وماذا أيضًا؟..

قالوا: لا يجيب أحدًا بليل.

قال سعيد: والله، إن كنت لأكره ذكره، إنى جعلت النهار لهم،  
وجعلت الليل لله عز وجل..

قال عمر: وماذا أيضًا تشكون منه؟

قالوا: إن له في الشهر يومًا لا يقابل فيه أحدًا..

وقال سعيد: ليس لي خادم يغسل ثيابي، ففي هذا اليوم أغسلها،  
وأنتظرها حتى تجف، ثم أخرج إليهم آخر النهار..

قال عمر وقد غمره الحبور والبشر: الحمد لله الذي لم يُخيب

فراستي!!..

إن سعادته تكون غامرة، حين تخيب شكوى، وتظهر براءة  
لأنه يريد أن يرى ولاته كلهم، بل والناس جميعًا متفوقين على  
الضعف، مُبرّأين من العيب..

أرسل «عمير بن سعد» والياً على حمص، فمكث هناك عاماً لا يرسل خراجها. ولا تصل منه أية أنباء، فقال «عمر» لكتابه: - «اكتب إلى عمير، فإني أخاف أن يكون خاننا»... وأرسل إليه يستدعيه..

وذات يوم شهدت شوارع المدينة رجلاً أشعث أغبر، تَغْشَاه وَعَثَاء السفر، يكاد يقتلع قدميه من الأرض اقتلاعاً من طول ما لاقى من عناء، وبذل من جهد.. على كتفه اليمنى جراب وقصعة.. وعلى كتفه اليسرى قربة صغيرة فيها ماء.. وإنه ليتوكأ على عصا لا يؤودها حملة الضامر الوهنان..

ودلّف إلى مجلس «عمر» في خطوات مُتَّئِدَة.

- «السلام عليك يا أمير المؤمنين»..

ويرد «عمر» السلام، ثم يسأله وقد آلمه ما رآه عليه من جهد وإعياء.

- ما شأنك يا عمير؟؟

- شأنى ما ترى.. أأست ترانى صحيح البدن، طاهر الدم، معى الدنيا أجرها بقرنها؟!!

قال عمر: وما معك؟

قال عمير: معى جرابى أحمل فيه زادى، وقصعتى آكل فيها، وإداوتى، أحمل فيها وضوئى وشرابى، وعصاى أتوكأ عليها. وأجاهد بها عدواً إن عَرَض، فو الله ما الدنيا إلا تبع لمتاعى..

قال عمر: أجنئت ماشياً؟؟

- نعم..

- أو لم تجد من يتبرع لك بدابة تركبها؟؟

- إنهم لم يفعلوا، وإنى لم أسألهم!

- فماذا عملت فيما عهدنا إليك به؟؟

- أتيتُ البلد الذي بعثتنى إليه، فجمعتُ صلحاء أهله، ووليتهم  
جباية فيئهم وأموالهم. حتى إذا جمعوها وضعتها في مواضعها،  
ولو بقى لك منها شيء لأتيتك به..

- فما جئتنا بشيء؟

- لا...

قال «عمر» وهو منبهر سعيد: «جَدُّوا لعمير عهداً»..

قال عمير: «تلك أيام قد خلت، لا عملتُ لك ولا لأحد بعدك!!».

\*\*\*

والويل الشديد للوالى الذى يفكر فى أن يهدى لعمر هدية ما..  
والحق أنهم جميعاً كانوا من القطننة بحيث لم يتورطوا قط فى  
أمر كهذا!!

ولم يفعله منهم مرة واحدة سوى الرجل الصالح الطيب «أبى  
موسى الأشعري»..

فذات يوم عاد أمير المؤمنين إلى داره، فوجد رقعة من سجاد  
لا تزيد على متر، وبعض متر، فسأل زوجه «عاتكة»..

- «أنتى لك هذه؟؟»

قالت: أهداها إلينا أبو موسى الأشعري.

- «أبو موسى؟؟.. ايتونى به!!».

ويجىء أبو موسى، تسبقه مخاوفه، ولا يكاد يقترب من «عمر» ويلمح «السجادة» فى يمينه، «والتحفز» فى وجهه حتى يبادره القول «لا تعجل علىّ يا أمير المؤمنين»..  
ولكن أمير المؤمنين، يُعاجله، ويلفح بالسجادة رأسه ويقول له:

- ما يحملك على أن تهدى إلينا؟ خذها فلا حاجة لنا فيها!!  
والويل كذلك. لمن يطمع فى أن يتسوّر مسئوليات هذا الرجل الكبير بشفاعته يشفعها فى غير حق..

حدّث يوماً أن أنزل بأحد ولاته جزاء، فانتهزت زوجه «عائكة» ساعة من ساعات فراغه وهدوئه، وشفعت للرجل. ولم تزد على أن قالت: يا أمير المؤمنين، فيمَ وجدّت عليه؟

هنالك انتفض «عمر»؛ كأنما انهى من دين الله ركن، وصاح فيها:  
- «يا عدوة الله، وفيم أنت وهذا؟!»

لو كان هذا الموقف من زوجته مشورة ورأياً، لتقبل المشورة، وبحث الرأى، فسنراه بعد حين ينحنى فى إعجاب وخشوع لسيدة عارضت رأيه فى تحديد المهور..

أما هنا، فقد تصور «عمر» الموقف على أنه تدخل في المسؤولية من غير مسئول، ولون من الشفاعة أو الوساطة لا يسكت «عمر» عليه، ولا يتسامح معه..

هذه مسئوليته تجاه ولاته..

فلننظر مسئوليته تجاه أموال الأمة.. وإنها لمسئولية تحير العقول وتبهر الأفئدة.

ولنبدا بهذا النبأ.

يقول عبد الله بن عامر بن ربيعة:

— «صحبت عمر بن الخطاب من المدينة إلى مكة في الحج، ثم رجعنا، فما ضرب له فسطاط، ولا خباء؛ ولا كان له بناء يستظل به. إنما يلقي كساء على شجرة فيستظل تحته!!».

ويقول بشار بن نمير:

«وسألني عمر: كم أنفقنا في حجتنا هذه؟ قلت: خمسة عشر دينارًا.. فقال: لقد أسرفنا في هذا المال!!».

أرأيتم إلى الرجل الذي وُضعت تحت عتبة خزائنه أموال كسرى وقيصر، ثم يخرج إلى الحج وسط صحراء ملتتهبة، فلا يهيئ لنفسه من ضرورات الرحلة شيئاً؟! ... يذوق وقْدَةَ الحر، وقيظ الجبال المستعرة، مثلما تذوقه كافة الناس، وينفق خلال رحلته كلها خمسة عشر دينارًا. ثم يقول: لقد أسرفنا؟!!

قبل أن يلي أمور المؤمنين ويصير أميرهم، كان تاجرًا يكسب عيشه ورزق أهله وعياله من التجارة، فلما تفرغ لمهمته الجديدة، فرض لنفسه من بيت المال ما يعيش به هو وعائلته في مستوى الكفاف...

وكان مع الأيام تزداد تبعاته، وتزداد احتياجاته ونفقاته، ويرفع كلما هب الرخاء رواتب جميع المسلمين في المدينة وخارجها، لكنه لا يفكر في أن يزيد نفسه درهماً.. حتى سمع أصحابه يوماً أن أمير المؤمنين يقترض ليعيش، فاجتمع نفر من الصحابة معهم عثمان، وعلى وطلحة، والزبير، واتفقوا على أن يتحدثوا معه، ويطلبوا إليه أن يزيد في راتبه، ومخصّصاته، لكنهم عادوا وتهيبوا محادثته، لأنهم يعرفون أنه في هذه المسألة بالذات شديد الوطأة، لافح الغضب..

قال عثمان: فلنستبرئ ما عنده من وراء وراء... واتجهوا إلى حفصة بنت عمر، واستكتموها أمرهم، وطلبوا إليها أن تستطلع أمر أبيها..

وذهبت حفصة إلى عمر متهيبة، وأخذت تسوق الحديث بحذر ورفق.

فقال عمر: من بعثك إليّ بهذا؟

قالت: لا أحد..

قال: بل بعثك بهذا قوم، لو عرفتهم لحاسبتهم..  
ثم قال لابنته: لقد كنت زوجة لرسول الله فماذا كان يفتنى في  
بيتك من الملابس؟

قالت: ثوبين اثنين!!

قال: فما أطيب طعمة رأيتيه يأكلها؟

قالت: خبز شعير طرى مَترود بالسمن..

قال: فما أوطأ فراش كان له في بيتك؟

قالت: كساء ثخين. كنا نبسطه في الصيف، فإذا كان الشتاء

بسطنا نصفه.. وتدثرنا بنصفه!!

قال يا حفصة: «فأبلغى الذين أرسلوك إليّ. أن مثلى ومثلى  
صاحبى - الرسول وأبى بكر - كثلثة سلكوا طريقاً. فمضى الأول  
وقد تزوّد فبلغ المنزل.. ثم اتبعه الآخر، فسلك طريقه فأفضى  
إليه.. ثم الثالث، فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما ألحق بهما..

وإن سلك غير طريقهما لم يجتمع بهما»!!!

أهناك كلام يصلح أن يكون تعليقا على هذا المشهد الفذ

العجيب؟!.. كلا.. فلندعه بدون تعليق!!!

\*\*\*

وكانت القيامة تقوم إذا سمع «عمر» أن درهماً واحداً من الأموال

العامة قد اختلس، أو انتهب، أو أنفق في ترف أو إسراف..

كان يرتجف، ويرجف، كأن خزائن المال كلها قد ضاعت،  
وليس درهما أو بعض درهم!!

وكان يُقسم لو أن بعيراً من إبل الصدقة ضاعت على ضفاف دجلة  
أو الفرات، وعمر بالمدينة، لخاف أن يسأله الله عنه!!  
وفى يوم صائف قانظ يكاد حره يذيب الجبال، أطل «عثمان  
ابن عفان» من بناية له بالعالية، فرأى رجلاً يسوق أمامه بعيرين  
صغيرين والهواء الساخن يغشاه كلفح السموم..

فقال محدثاً نفسه: ما على هذا الرجل لو أقام بالمدينة حتى  
يُبرد؟ وأمر خادمه أن ينظر من هذا الرجل العابر من بعيد، والذي  
تخفى الزوبعة والرمال السافيات معالمه..

ونظر الخادم من فرجة الباب، فقال: أرى رجلاً معممًا بردائه  
يسوق بكرين أمامه. وانتظر حتى اقترب الرجل، فعرفه الخادم  
وصاح: إنه عمر.. إنه أمير المؤمنين!!

فأخرج عثمان رأسه من كوة صغيرة متوقياً سخونة الريح،  
ونادى: ما أخرجك هذه الساعة يا أمير المؤمنين؟

أجاب عمر: بكران من إبل الصدقة، تخلفا عن الحمى  
- المرعى - وخشيت أن يضيعا، فيسألني الله عنهما!!  
قال عثمان: هلم إلى الظل والماء، ونحن نكفيك هذا الأمر.  
فقال له عمر: عد إلى ظلك يا عثمان..

قال: عندنا من يكفيك هذا الأمر يا أمير المؤمنين..  
قال مرة أخرى: عد إلى ذلك يا عثمان.. ومضى لسبيله والحر  
يصهر الصخر..

فقال عثمان مأخوذاً ومبهوراً: «من أراد أن ينظر إلى القوى  
الأمين، فليُنظر إلى عمر»!!!

والقوى الأمين يباشر مسئولياته المالية، مباشرة ذكية عميقة  
فهو لا يُعنى بالسهل على حفظ أموال الأمة فحسب، بل ويُعنى  
بالعمل على تنميتها، وإرباء الدخل القومي بكل سبيل ممكنة..

• فهو - مثلاً - يقاوم فكرة توزيع أرض السواد على الفاتحين لأن  
ذلك يخلق طبقة محتكرة، وفي الوقت نفسه، عاجزة عن خدمة  
الأرض، غير خبيرة بزراعتها، ويترك الأرض تحت أيدي  
زارعيها، مكتفياً بالضرائب التي تدفع لبيت المال، ثم ينال كل  
مسلم حظه منها..

• وهو يشجع على إحياء الأرض الموات التي لا صاحب لها، والتي  
قال فيها الرسول ﷺ «من أحيا أرضاً ميتة فهي له»..

وحين يرى أمير المؤمنين أناساً يضعون أيديهم على هذه  
الأرض، ويُسوّرونها، ثم يهملون استصلاحها وزراعتها، يسن  
قانوناً يمنح «واضع اليد» فرصة مداها ثلاث سنوات فإذا عجز  
خلالها عن إحياء الأرض وتحويلها إلى حقل، أو بستان، أو  
مرعى، نُحى عنها، وأعطيت لغيره من القادرين..

« وهو كذلك يحض المسلمين على الكسب المشروع، فيغيرهم بالتجارة الشريفة النظيفة، قائلاً لهم: غداً سيكون لكم أبناء وحفدة، فماذا يغنى عنكم هذا الذي بأيديكم؟! »  
 وهو يعنى عناية خاصة بالثروة الحيوانية، فيخصص للماشية مرعى خصيباً رحيباً، يرعى المسلمون فيه ماشيتهم بغير مقابل، وإنه ليتعهد هذا المرعى دائماً، وقلما كان يوم يمر دون أن يرى الناس «عمر»، قد خرج منتصف النهار، واضعاً ثوبه فوق رأسه ليقويه من الشمس، قاصداً أرض الحمى والمرعى، يتعاهدها ويتفقدتها، ويحذر حارسها من أن يسمح لأحد أن يعضد شيئاً من شجرها، أو أن يضرب فيها بفأس!!

\*\*\*

ولا يخطر بالبال ونحن نتحدث عن المال وعن الدخل القومى أيام عمر، أننا نتحدث عن أموال شحيحة وموارد ضحلة، فإن «عمر» لم يمت إلا بعد أن كان يحرك يده القوية الأمانة فى دخل من أضخم الدخول يومئذ بعد أن آلت إلى الإسلام معظم ممتلكات الروم والفرس!!

ولم يمت «عمر» حتى كان هناك لكل فرد راتب سنوى يكفيه أو يقارب كفايته، لا فى عاصمة الدولة وحدها، وهى المدينة، بل فى كل أقطار الإسلام!!!

يقول له خالد بن عرفطة :

«يا أمير المؤمنين تركتُ الناس يسألون الله أن يزيد في عمرك  
من أعمارهم.. ما وَطئَ أحد القادسية إلا وعطاؤه ألفان، أو خمس  
عشرة مائة. وما من مولود يولد إلا ألحق في مائة وجريبين كل  
شهر ذكرًا كان أو أنثى. وما يبلغ لنا ولد إلا ألحق على خمسمائة  
أو ستمائة»!! .

وحرص عمر على تنمية الثروة، لم يحمله قط على سلوك سبيل  
فيها جشع أو إرهاب..

فالثروة عند عمر، في خدمة الإنسان، وليس الإنسان في خدمة  
الثروة!!

لهذا، كان يُنزل غضبه الشديد على كل وال يحرم أهل ولايته  
لكى يرفع إلى المدينة خراجًا كبيرًا يظن أنه يُكسبه رضاء أمير  
المؤمنين..

وكان يأمر أن تقسم خيرات البلد - أئى بلد - على أهلها أولاً،  
فإذا بلغوا كفايتهم. رفع إلى عاصمة الدولة نصيبها..

وكان يأمر عماله أن يتقاضوا الضرائب فى رفق وعدل ورحمة.  
حُمِلَ إليه يومًا مال وفير من أحد الأقاليم، فسأل عن مصدره  
وعن سر وفرتة وكثرتة، فلما علم أنه من ضريبة الزكاة التى  
يدفعها المسلمون، وضريبة الجزية التى يدفعها أهل الكتاب، قال  
وهو ينظر إليها كثيرة عارمة:

- إني لأظنكم قد أهلكتم الناس..  
- قالوا: لا والله، ما أخذنا إلا صَفْوًا عَفْوًا...

قال: بلا سوط، ولا نوط؟؟

قالوا: نعم..

قال ووجهه يتهلل ويُشرق: «الحمد لله الذى لم يجعل ذلك علىَّ

ولا فى سلطانى»!!

وكان يُعفى من ضريبة أهل الكتاب، كل من عليه دين يستغرق ماله. ذلك لأنها لم تكن ضريبة إذلال، بل ضريبة دخل، فإذا عجز عنها دافعها، وضعت عنه فوراً!!

وبعد.. فهذا هو «عمر»، الحاكم المسئول.. وهذه هى طريقته فى تحمل مسئولياته جميعها.

هذا هو الرجل الذى كانت جيوشه تُدِيل مظالم الروم والفرس وتدكُّها دكًّا، بينما هو يسير فى طرقات المدينة لابسًا ثوبًا به إحدى وعشرون رقعة.. ويبطئ عن المسلمين يومًا فى صلاة الجمعة ثم يعتذر إليهم حين يصعد المنبر قائلًا:

- «حبسنى قميصى هذا، لم يكن لى قميص غيره»!!..

إن مسئولياته المباركة دفعته إلى نهايات الطرق، وقم المثل، فجاءت تصرفاته كلها تمثل أقصى ما يستطيع الكمال الإنسانى أن يبلغه..

• فَتِجَاهَ مَسْئُولِيَّتِهِ عَنِ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ، يُحْمَلُهُمْ كُلُّ مَغَارِمِ الْحُكْمِ

وَيُحْرَمُهُمْ مِنْ كُلِّ مَغَانِمِهِ!!

• وَتِجَاهَهُ، وَوَلَاتِهِ وَمَعَاوِنِيَّتِهِ، يَخْتَارُهُمْ بِنَفْسِهِ. وَيُلْزِمُهُمْ صِرَاطًا

مُسْتَقِيمًا أَحَدًا مِنَ الشُّفْرَةِ، وَأَرْقَ مِنَ الشُّعْرَةِ!!

• وَتِجَاهَ أَمْوَالِ الْأُمَّةِ، يَبْلُغُ أَقْصَى دَرَجَاتِ الْحِفَافِ عَلَيْهَا، وَالزَّهْدِ

فِيهَا!!

• وَتِجَاهَ الْجَبَّارِينَ الْعَتَاةِ، يَبْلُغُ أَقْصَى أَسْبَابِ الشَّدَةِ وَالْحَزْمِ!!

• وَتِجَاهَ الضَّعْفَاءِ وَالْبَسِطَاءِ يَبْلُغُ غَايَةَ الْمَدَى فِي الْحَدَبِ وَاللِّينِ!!

إِنَّ مَسْئُولِيَّتَهُ تَقْوَدُهُ. وَإِنَّهُ لَيَبَاشِرُهَا بِرُوحِ الْمُخْبِتِ الْعَابِدِ

الْأَوَّابِ..

وَإِنَّ عِظَمَةَ سُلُوكِهِ، كَرَجُلٍ مَسْئُولٍ، لَا تَتِمُّثَلُ فِي الْعِجَالَةِ الَّتِي

سَرَدْنَاهَا إِلَّا كَمَا يَتِمُّثَلُ ضَوْءُ الشَّمْسِ فِي الشَّعَاعَةِ الْمُتَسَلِّسَةِ مِنْ

حَنَابِ النَّافِذَةِ!!!

أَلَا وَإِنَّ عَمْرَ الْحَاكِمِ، لَيَتَعَبُ كُلَّ حُكَّامِ التَّارِيخِ، وَيَجْعَلُ

مَسْئُولِيَّتَهُمْ فَادِحَةً وَكَبِيرَةً..

ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَهًا وَلَا مَلَكًا، وَلَا رَسُولًا يُوحَىٰ إِلَيْهِ، إِنَّمَا كَانَ

فَرْدًا مِنَ النَّاسِ يَجْتَهِدُ رَأْيَهُ، وَيَنْهَضُ بِعِزْمِهِ. وَلَقَدْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَبْلُغَ

ذَلِكَ الشَّأْوِ الْبَعِيدِ فِي عَدْلِهِ، وَفِي رَحْمَتِهِ، وَفِي أَمَانَتِهِ، فَمَا عَذْرُ

الْآخِرِينَ إِذَا قَعَدَتْ بِهِمْ عِزَائِمُهُمْ؟!

إن «عمر» الحاكم، حجة الله على كل حاكم..  
فإذا قال حاكم مآ، ساعة حسابه: يا رب عجزت..  
قال الله له: ولماذا لم يعجز عمر؟؟!!

□□□